6

حكاية العندليب

«عندما نعشق، نحيا الحياة بحق»

obeikandl.com

obeikandl.com

العندليب قصة عن عشق الحياة، أبطالها عندليب ساحر، وإمبراطور متسلط، وموسيقي معتز بنفسه، وحاشية رهن الإشارة. وبهذه الشخصيات تطرح القصة سؤالين مهمين:

ـ ما أهم ما في عملك؟

ـ ما الشيء ـ أو الأشياء ـ التي لها أكبر قيمة عندك؟

يدفعنا هذان السؤالان إلى التفكير في الأسلوب الذي نتبعه في عملنا؛ فهل نولي أكبر تقديرنا لسلطة المنصب أو الخبرة وليس للأشياء أو الأشخاص الجديرين بها حقاً؟ وهل نثق بالعقل على حساب العاطفة، ونحترم البيانات أكثر من حدسنا؟ وهل نفضل أداءً تقليدياً على أداءٍ مدهش؟

ما الشيء الذي يجعلك تريد أن تغني من كل قلبك؟ موضوعنا هنا هو الدافع. أغلب شخصيات الحكاية يغريها الذهب والألقاب والتصفيق؛ لذلك يغدق الإمبراطور عليها امتيازات وشباشب ذهبية وألقابًا، أما العندليب فينهل قوته من الطبيعة ومن جدوى ما يعمل ومن المودة والحرية، وليس للإمبراطور سلطان على أي منها. وهنا مكمن الصراع الرئيس في الحكاية وفي الحياة العملية لكثير من الناس.

obeikandl.com

وبينما تقرأ الملخص التالي ـ أو الحكاية الكاملة إن شئت ـ أدعوك للتفكير في هذه الأسئلة: ما الذي سرك في الحكاية؟ وما الذي شغل اهتمامك؟ هل ذكرتك بعنادل أخرى، أو أباطرة، أو أساتذة موسيقى في مسيرة عملك؟

obeikandl.com

ملخص الحكاية

كان قصر الإمبراطور الصيني من أرق أنواع البورسلين، وكان في حديقته زهور مدهشة مربوط بها أجراس دقيقة. كل شيء كان مرتباً ببراعة في دنيا الإمبراطور.

وكان في الغابة عندليب ساحر الشدو يمس غناؤه قلوب العمال، وكان الزائرون يكتبون الكتب والقصائد عن القصر العظيم والحديقة والعندليب.

وذات يوم كان الإمبراطور يقرأ أحد هذه الكتب حتى وصل إلى هذه الجملة: «ولكن العندليب كان الأروع بلا شك». فصاح: «ما هذا؟» وأمر أن يؤتى بالعندليب ليشدو بأغانيه في القصر تلك الليلة، وإلا جلد الجميع على بطونهم بعد العشاء مباشرة.

انطلقت حاشية القصر في كل ركن، فلم يكن أحد منهم قد سمع عن هذا الطائر. وأخيرًا وجدوا خادمة صغيرة في المطبخ تستطيع أن تدلهم عليه. وفي الطريق كان أفراد الحاشية يعجبون بخوار البقرة ونقيق الضفدع ظنًا منهم أنها أغنية العندليب. حتى رأوا الطائر الصغير البسيط وقدموا إليه «دعوة» الإمبراطور.

وفي تلك الليلة، في القصر، شدا العندليب بأغنيات ساحرة جعلت الدموع تسيل من عيني الإمبراطور على خديه. تأثر الإمبراطور بهذا الغناء حتى أراد أن يهدي شبشبه الذهبي إلى العندليب ليعلقه في عنقه؛ لكن العندليب رفض وقال: إن دموع الإمبراطور هي أغلى مكافأة.

openkand.com

أصـر الإمـبـراطور أن يبقى العندليب في القـصـر. وهكذا «مُنح» الطائر قفصًا ذهبيًا واثني عشر خادمًا يسهرون على راحته، بالإضافة إلى «حرية» المشي في الخارج مرتين يوميًا.

وبعد مدة، أرسلت للإمبراطور هدية، كانت عندليباً صناعياً من الذهب والجواهر، وكان يستطيع أن يردد الأغنية نفسها ثلاثاً وثلاثين مرة دون أن يتعب، فحاز إعجاب الجميع فورًا. في هذه الأثناء فر العندليب الحيّ من النافذة المفتوحة. وغضب الإمبراطور بشدة لهروبه، فأصدر قرارًا بنفيه من ملكه.

أكد أستاذ الموسيقى ساعتها للجميع أن الطائر الأفضل مازال عندهم، ووافقه الجميع على ذلك. حاز العندليب الآلي مكانة الشرف على مائدة عشاء الإمبراطور. وفي إحدى الليالي، وبينما كان هذا العندليب يغني انقطع شيء داخله وتوقفت الموسيقى. أصلح الساعاتي الطائر، لكنه لم يعد بإمكانه الغناء إلا قليلاً.

مرت خمس سنوات، كان الإمبراطور على فراش الموت وحيدًا، فقد تم اختيار إمبراطور جديد فهرع إليه الجميع ليحيوه. لم يكد الإمبراطور العجوز يستطيع التنفس لأن الموت كان جاثماً على صدره، وحول فراشه ظهرت وجوه غريبة أصواتها الخفيضة تعدد حسنات الإمبراطور وسيئاته. وكان الإمبراطور في كربٍ شديد حتى صرخ منادياً أن يقوم أحد بتشغيل الطائر الذهبي ليسمع غناءه، ولكن لم يكن هناك أحد.

وفجأة صدرت أجمل الأغاني من جهة النافذة، فقد استجاب العندليب الحقيقي لصرخة ألم الإمبراطور، وجاء ليؤنسه، وشيئاً فشيئاً اختفت الوجوه الغريبة، وانصرف الموت خارجاً من النافذة، وحظي الإمبراطور بنوم هادئ طوال الليل.

وفي الصباح طلب الإمبراطور من العندليب البقاء في القصر فرفض العندليب، لكنه وعد أن يأتي كل ليلة ويغني للإمبراطور حتى يكون سعيدًا ومراعياً للآخرين، ثم طار العندليب.

ما لبث الخدم أن جاؤوا ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الراحل. وتصوروا دهشتهم عندما وجدوه في كامل عافيته، فوقفوا مشدوهين حين كان الإمبراطور يلقي عليهم تحية الصباح.

obeikandl.com

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم...استوحى أندرسون هذه القصة من حدثين: افتتاح حدائق تيفولي في كوبنهاغن، ولقاء المغنية العظيمة جيني لند، وكانت مشهورة في زمانها بعندليب السويد.

تم افتتاح حدائق تيفولي في أغسطس عام 1843، وكانت مكانًا ساحرًا به نماذج لمعابد الباجودة متعددة الأدوار، وفوانيس ملونة، وطواويس وألعاب نارية وبحيرات وأزهار ومطاعم ومسارح وجولات ترفيهية. وفي الشهر التالي قابل أندرسون جيني لند عندما كانت تقدم أول عروضها في كوبنهاغن. وقد صارت فيما بعد محبوبة الجماهير في فيينا، تشرب الشاي مع الملكة فيكتوريا في لندن، وتقوم بجولة في الولايات المتحدة.

في أول الأمر لم يكن أندرسون يرى جمالاً في لند، ولكن عندما سمعها تغني أسرته حتى هام بها. ولأنه رومانسي حقيقي، كان يفضل الشعور بحالة الحب أكثر من ممارسة علاقة حب البالغين. وحتى عندما عرض الزواج على لند، في خطاب، حرص على ذكر عدة أسباب جعلتها لا تراه مناسباً. إذ لم تكن لند تكن تهتم به عاطفيًا بل كانت تعتبره أخاً.

تم إنجاز قصة «العندليب» في فورة مدهشة من النشاط، إذ كتب أندرسون في يومياته ليوم 11 أكتوبر من عام 1843: «بدأت الحكاية الخرافية الصينية في حدائق تيفولي»، وفي الليلة التالية كتب: «تناولت عشائي في البيت، تحدثت، أنهيت الحكاية الصينية».

كان أندرسون نادرًا ما يضمن قصة «العندليب» في قراءاته العلنية. لكن مراسلاته تشير إلى أنه قرأها على جمهور في عام 1852 خلال واحدة من زياراته العديدة إلى فايمر بألمانيا، وكانت هذه هي الحكاية الأثيرة لدى الموسيقار فرانز ليست.

obeikandl.com

الحكاية الكلاسيكية

في الصين، كما تعرفون، يكون الإمبراطور صينياً، وكل من حوله كذلك صينيون. وقعت أحداث هذه القصة منذ سنوات بعيدة، وهذا ما يجعلها تستحق أن تروى، قبل أن يطويها النسيان. كان قصر الإمبراطور الأفخم في العالم، إذ كان كل ما فيه مصنوعًا من البورسلين الرقيق الثمين، لكنه كان هشاً حتى إن كل من فيه كانوا يلمسون كل شيء بحرص شديد. وكان في الحديقة أزهار تخلب الألباب، وبجوار هذه الروائع ربطت أجراس فضية تدق، حتى إذا مر أحد بها لم يغفل عنها. أجل، كان كل شيء مرتباً بعناية في حديقة الإمبراطور.

كانت الحديقة واسعة تمتد في كل اتجاه حتى إنها نفسها لا تعرف حدودها. فإذا واصلت السير فيها وصلت إلى أجمل غابة، ذات أشجار باسقة وبحيرات عميقة. كانت الغابة تمتد حتى البحر الأزرق العميق؛ فكانت السفن الكبيرة تبحر تحت فروع الأشجار تماماً. وكان يعيش في تلك الأغصان عندليب يشدو بأعذب الألحان، حتى إن أفقر الصيادين، وأكثرهم انشغالاً، كان يتوقف ويستمع إليه وهو يسحب شبكته ليلاً ويقول: «يا إلهي! ما أعذب صوته!» ثم يواصل عمله وينسى أمر الطائر. وفي الليلة التالية، عندما يعاود العندليب غناءه ويعود الصياد إلى البحر، كان يقول الشيء نفسه: «يا إلهي! ما أعذب صوته!».

من كل بلاد الدنيا يأتي المسافرون إلى مدينة الإمبراطور، وكانوا يعجبون بالمدينة وبالقصر وبالحديقة. لكنهم كانوا إذا ما سمعوا العندليب يقولون جميعاً الشيء نفسه: «هذا هو الأروع على الإطلاق».

وكان المسافرون يتحدثون عن ذلك عندما يعودون لأوطانهم. وكتب المتعلمون منهم كتباً كثيرة عن المدينة والقصر والحديقة، لكنهم لم ينسوا العندليب قط، فقط كان على رأس القائمة بلا منازع، ومنهم من كان يكتب الشعر فألف أجمل القصائد، كلها عن العندليب الذي يسكن الغابة التي بجوار البحر العميق.

لفت الكتب الدنيا، حتى إن بعضها وصل إلى الإمبراطور الذي كان جالساً على عرشه الذهبي يقرأ ويقرأ. وكان يهز رأسه موافقة طوال الوقت، فقد أسعده الوصف الباهر لمدينته وقصره وحديقته، حتى وصل إلى جملة: «ولكن العندليب هو الأروع». قال الإمبراطور: «ما هذا العندليب؟ أنا لا أعرفه على الإطلاق! هل ثمة طائر في إمبراطوريتي؟ بل في حديقتي؟ لم أسمع بهذا قط، وما كنت لأعرفه لولا أن قرأت عنه!»

ثم نادى حاجبه، وكان مترفعاً لدرجة أن كل من يخاطبه ممن دونه لم يكن بمقدوره أن يتم كلمة لها معنى أمامه.

قال له الإمبراطور: «يقال إن طائراً مدهشاً يعيش هنا يسمى عندليباً، ويقال إنه أروع ما في إمبراطورتي. فلماذا لم يحدثني عنه أحد قط؟»

قال الحاجب: «لم أسمع به من قبل ولم يأت إلى البلاط قط».

قال الإمبراطور: «لابد أن يأتي الليلة هنا ويغني لي؛ فالدنيا كلها تعرف أنه عندي وأنا لا أعرفه».

قال الحاجب: «أنا لم أسمع به من قبل ولكني سأبحث عنه وسأجده».

ولكن أين يجده؟ أسرع الحاجب وذهب إلى كل مكان في القصر، أعلى وأسفل في القاعات والدهاليز ولم يكن أحد ممن قابله قد سمع بالعندليب. وأسرع الحاجب عائدًا إلى الإمبراطور وقال له إن العندليب ربما يكون أسطورة اختلقها من يكتبون الكتب: «لا ينبغي لجلالتك أن تصدق كل ما يكتب، فكله محض اختلاق، يسمى بالفن الأسود».

قال الإمبراطور: «لكن الكتاب الذي كنت أقرأ فيه أرسله إليّ إمبراطور اليابان العظيم، لا يمكن أن يكون تلفيقاً. سأسمع العندليب! وسيكون عندي الليلة وسأمنحه أعلى الامتيازات. وإذا لم يأتني فسيجلد كل من في القصر على بطنه بعد العشاء مباشرة».

قال الحاجب بالصينية: «تسنغ بي». وجرى مرة أخرى صاعداً درجاً وهابطاً آخر إلى كل القاعات والدهاليز وتبعه نصف من في القصر فقد كانوا يخشون أن يجلدوا على بطونهم. كلهم كانوا يسألون الدنيا كلها عن العندليب المدهش، ولم يكن أحد في البلاط يعرفه.

وأخيرًا وصلوا إلى فتاة صغيرة فقيرة في المطبخ قالت : «يا ربي! العندليب؟ أعرفه جيداً، إنه بارع الغناء، و إني أسمعه في كل ليلة يسمح لي أن آخذ بعض بقايا الطعام إلى بيتي حيث أمي الفقيرة المريضة التي تعيش بجوار الشاطئ. وعندما أعود من هناك متعبة من السير أستريح في الغابة، وساعتها أسمع العندليب يغني، حتى تجري الدموع من عيني وأشعر كأن أمي تقبّلني».

أعلن الحاجب أن فتاة المطبخ الصغيرة ستمنح منصباً دائماً في المطبخ «وسيسمح لها أن ترى الإمبراطور وهو يأكل، إن هي قادتنا إلى العندليب، الذي يستدعيه الإمبراطور الليلة».

وانطلق نصف من في القصر إلى الغابة، حيث يغني العندليب عادة، وفي الطريق سمعوا بقرة تخور فقالوا «ها قد وجدناه؛ إن هذا المخلوق الصغير له قوة كبيرة، ولقد سمعناه من قبل بالتأكيد».

قالت عاملة المطبخ الصغيرة: «مازلنا بعيدين عن المكان... كانت تلك بقرات تخور».

ثم علا صوت نقيق الضفادع في البركة. قال حاجب القصر: «مدهش! أنا أسمعه الآن، صوته مثل صوت أجراس صغيرة». قالت فتاة المطبخ الصغيرة: «كلا، هذه ضفادع، لكن أظن أننا سنسمع العندليب قريبًا».

ثم بدأ العندليب شدوه؛ فقالت الفتاة: «هاهو! أنصتوا، أنصتوا، ها هو!» وأشارت إلى طائر رمادي صغير بين الأغصان.

obeikandi.com

قال الحاجب: «هل هذا معقول؟ لم أكن أتصوره بهذا الشكل قط. إنه بسيط جدًا، لابد أنه فقد ألوانه لكثرة من قابلهم من الشخصيات المهمة».

قالت فتاة المطبخ بصوت عالٍ: «أيها العندليب الصغير، إن إمبراطورنا المحبوب يود بشدة أن تغني له».

قال العندليب: «على الرحب والسعة». وغنى غناءً ساحرًا. قال الحاجب: «إنه كأجراس زجاجية، انظروا إلى عنقه الضئيل وكيف يستخدمه، غريب أننا لم نسمعه من قبل، إنه سيلقى نجاحاً كبيراً في البلاط».

قال العندليب: «هل سأغني للإمبراطور مرة أخرى؟» فقد كان يظن أن الإمبراطور قد جاء معهم.

قال الحاجب: «أيها العندليب الصغير الرائع، يسرني للغاية أن أدعوك إلى احتفال في بلاط الإمبراطور الليلة حيث ستشنف أذن عظمة الإمبراطور بأغنيتك الساحرة».

قال العندليب: «إن أغنيتي تكون أجمل في الفضاء المفتوح في الغابة الخضراء». لكنه وافق على الذهاب معهم عندما علم أن الإمبراطور يريده.

كان كل شيء في القصر قد تم تلميعه، وكانت الجدران والأرضيات المصنوعة من البورسلين تعكس ضوء آلاف المصابيح الذهبية، أما الممرات فقد وضعت فيها أجمل الأزهار ذات الأجراس الدقيقة، وكان

obeikandi.com

العاملون في البلاط يجرون هنا وهناك حتى إن الهواء الذي يثيرونه يحرك الأجراس فتحدث رنيناً لا يستطيع المرء بسببه أن يسمع نفسه وهو يفكر.

وفي وسط القاعة الكبرى، حيث كان الإمبراطور يجلس، تم وضع محط ذهبي للعندليب، وكان كل من في القصر موجوداً هناك، وسمح لخادمة المطبخ الصغيرة أن تقف وراء الباب فقد نالت الآن لقب «خادمة مطبخ حقيقية». كان الجميع قد ارتدوا أبهى حللهم، وكانت أنظارهم تتعلق بالطائر الرمادي الصغير الذي هز له الإمبراطور رأسه ليبدأ شدوه.

غنى العندليب غناءً ساحرًا، حتى إن الدموع ملأت عيني الإمبراطور وسالت على خديه، ثم غنى العندليب غناءً أشد عذوبة فمس شغاف القلوب. أخذت النشوة الإمبراطور وقال إنه سيمنح العندليب شبشبه الذهبي ليعلقه في عنقه، لكن العندليب لم يقبل ذلك بل شكر الإمبراطور وقال إنه نال مكافأته بالفعل:

«لقد رأيت الدموع في عيني الإمبراطور، وهذا أغلى الكنوز؛ فدموع الإمبراطور لها قوة غريبة، يعلم الله أني نلت مكافأتي». ثم عاود الغناء بصوته العذب السماوي.

قالت النسوة الحاضرات: «هذا أشجى ما يحرك القلوب». ثم وضعن الماء في أفواههن حتى يشبه صوتهن الطيور عندما يتحدثن إلى الناس، إذ اعتقدن أنهن عنادل أيضًا. حتى أدنى الخدم والخادمات

obeikandl.com

أعلنوا سعادتهم بغناء العندليب، وهذا أمر مهم لأنهم أصعب من يمكن إرضاؤه. لقد حقق العندليب بالفعل نجاحاً مؤكدًا.

تقرر أن يبقى العندليب في البلاط، ويكون له قفصه وحرية الذهاب للتنزه مرتين نهارًا ومرة ليلاً ، كما منح اثني عشر خادمًا لمرافقته. وكان كل واحد منهم قد ربط خيطًا حريريًا بأحد رجلي العندليب يمسكه منه بخفة. ولكن لم تكن هناك أي متعة في تلك النزهة.

كانت المدينة بأسرها تتحدث عن الطائر المدهش، وعندما كان يتقابل اثنان كان أحدهما يقول «عند» ويقول الآخر «دليب» مع زفرة ويفهم كل منهما الآخر. بل إن أحد عشر طفلاً من أطفال الجزارين قد تسموا باسمه بالرغم من أنهم جميعًا لا يحسنون نغمة واحدة.

وذات يوم تلقى الإمبراطور طرداً كبيراً كتب عليه من الخارج «عندليب».

قال الإمبراطور: «ها هو كتاب جديد عن طائرنا الشهير»، ولكن لم يكن في الصندوق كتاب؛ بل قطعة فنية صغيرة ـ عندليباً اصطناعياً يشبه العندليب الحقيقي غير أنه مغطى بالألماس والياقوت الأحمر والأزرق. وما إن يدار مفتاح زنبرك الطائر الاصطناعي حتى يغني أحد ألحان الطائر الحقيقي و يتحرك ذيله إلى الأعلى وإلى الأسفل، وهو يتلألأ بفضته وذهبه. وكان حول عنقه شريط صغير كتب عليه «عندليب إمبراطور اليابان رخيص بالمقارنة مع عندليب إمبراطور الصين».

كانت «هدية رائعة» كما قال الحاضرون حتى منح من أتى بها لقب «جالب العندليب الإمبراطوري السامي».

«والآن لابد أن يغنيا معًا؛ فسيكونان ثنائياً جميلاً». وقد كان، لكن الأمر لم يسر سيرًا حسنًا، لأن العندليب الحقيقي كان يغني بطريقته الخاصة بينما كان الطائر الاصطناعي يعمل بأسطوانات آلية.

قال أستاذ الموسيقى: «ليس هذا خطأ الاصطناعي؛ فهو يتبع إيقاعًا زمنيًا ثابتاً يتوافق مع نظامي». وهنا سمح الإمبراطور أن يغني الطائر الاصطناعي وحده. وكان أداؤه لا يقل عن أداء الطائر الحقيقي وكان منظره أجمل، إذ يلمع مثل قطع الحلي من أساور ودبابيس.

غنى الطائر الاصطناعي اللحن نفسه ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يتعب. ورحب الناس بسماعه مرة بعد مرة، ولكن الإمبراطور أراد أن يغني العندليب الحيّ ولو قليلاً. ولكن أين ذهب؟ لم يلحظ أحد أنه طار من النافذة المفتوحة وذهب إلى غابته الخضراء.

قال الإمبراطور: «كيف يفعل هذا؟ وألقى كل أهل البلاط باللوم على العندليب وقالوا إنه مخلوق جاحد».

ثم قالوا: «مازال عندنا الطائر الأفضل». ثم كان على الطائر الاصطناعي أن يغني مجددًا، وللمرة الرابعة والثلاثين، كان اللحن نفسه، ولكن لم يتمكن أحد من حفظه لأنه كان لحنًا دقيقاً وصعباً. امتدح أستاذ الموسيقى الطائر مديحًا كبيراً وقال إنه خير من العندليب الحقيقي، ليس لمظهره فقط وما عليه من ماسات كثيرة رائعة، بل لأنه

أفضل منه مظهراً ومخبراً. «فكما ترون أيها السادة والسيدات، وقبلكم عظمة الإمبراطور، مع العندليب الحقيقي لا يعرف المرء ماذا سيحدث، أما مع الطائر الاصطناعي كل شيء محدد، ونعرف ما سيكون ولا اختلاف. إذ يمكن تفسير كل شيء، ويمكن أن نفتحه ونرى عمل العقل البشري، وكيف وضعت الأسطوانات الموسيقية وكيف تدور وكيف تتحرك ونرى أن كل شيء يلي الآخر».

قال الجميع: «هذا نراه بكل تأكيد». وفي يوم الأحد التالي سمح لأستاذ الموسيقى أن يعرض الطائر على الناس، فقد قال الإمبراطور إن الناس لابد أن يسمعوه، وسمعه الناس، وأطربهم غناؤه وكأنهم جميعاً قد أفرطوا في شرب منقوع الشاي، وهو مشروب صيني تقليدي. صاح الجميع: «ياه!» ورفعوا الإصبع السبابة نحو السماء ثم أومؤوا برؤوسهم موافقة. ولكن صياد السمك الفقير الذي سمع العندليب الحقيقي قال: «صوته جميل، ويشبه العندليب، لكن ينقصه شيء لا أعرف ما هو».

صدر قرار بنفي العندليب من البلاد، واحتل الطائر الاصطناعي مكانه على الوسادة السندسية قريبًا من سرير الإمبراطور وحوله كل ما تلقى من هدايا من الذهب والجواهر. وارتقى في الألقاب حتى صار «المغني السامي لسرير الإمبراطور ومائدته». و كان مقامه في المكان الأول على يسار الإمبراطور، وكان هذا أعلى مكان عند الإمبراطور لأنه الأقرب إلى جهة قلبه. كتب أستاذ الموسيقى خمسة

وعشرين كتاباً عن الطائر الاصطناعي، وكانت كتبًا ضخمة ورفيعة الثقافة وقد استخدم فيها أصعب الكلمات الصينية. وقال الناس إنهم قرؤوها وفهموها، وإلا اعتبروا أغبياء وضربوا على بطونهم.

استمر هذا الحال عاماً كاملاً، كان الإمبراطور وبلاطه وكل الصينيين قد حفظوا عن ظهر قلب كل نغمة يرددها الطائر الاصطناعي. وكان هذا هو السبب في حبهم له كل هذا الحب، إذ كان يمكنهم الغناء معه، وكانوا يفعلون. حتى صعاليك الشارع كانوا يرددون: «زيزيز زيزي، كلاك، كلاك، كلاك» وكان الإمبراطور يغنيها، لقد كانت أغنية رائعة بالفعل.

وذات ليلة، كان الطائر الاصطناعي يغني والإمبراطور في سريره يستمع، وفجأة صدر صوت غريب وحركة داخل الطائر كأنها نتاج فرقعة؛ انفصلت كل التروس عن بعضها وتوقفت الموسيقى.

انتفض الإمبراطور من سريره وأمر بحضور طبيبه الشخصي، ولم يجدِ ذلك نفعاً. ثم أحضر صانع الساعات، وبعد فحص وحديث طويل، لم يستطع إلا أن يعيد تركيب الطائر. لكنه نصح بعدم تشغيل الطائر إلا قليلاً لأن أسنان التروس كانت متآكلة، ولا يمكن تبديلها بطريقة تضمن استمراره في إصدار الموسيقى. كان ذلك أمراً محزناً للغاية، إذ لم يكن الطائر يعمل إلا مرة واحدة كل عام وحتى ذلك كان يضر به. لكن أستاذ الموسيقى ألقى خطاباً قصيراً به كل الكلمات الصعبة قال فيه إن الطائر عاد سليماً كما كان.

مرت خمس سنوات والبلد كله يعاني حزنًا بالغاً، لأن الشعب كله بالرغم من كل شيء كان يحب إمبراطوره حباً شديداً، وقد قيل إن الإمبراطور مريض ولن يعيش طويلاً. وتم اختيار إمبراطور جديد بالفعل، لكن كان الناس يقفون في الشوارع ويسألون الحاجب عن حال إمبراطورهم فيهز رأسه ولا يزيد قوله عن «بـ...!».

كان الإمبراطور يرقد شاحب اللون يشعر بالبرد في سريره العظيم الفاخر. ظن كل من في القصر أنه مات، فهرعوا لتحية الإمبراطور الجديد. تحدث صغار الخدم عن ذلك، واجتمعت خادمات الغرف في مجالس لشرب القهوة. وتم بسط القماش على الممرات وفي القاعات حتى لا يسمع صوت الأقدام، فساد الجو سكون عميق. ولكن الإمبراطور لم يمت حتى الآن. كان في سريره الضخم متصلباً وشاحباً فوقه ستائر مخملية طويلة تنتهي بشراشيب ذهبية ثقيلة. وكان في أعلى الغرفة نافذة مفتوحة يدخل منها ضوء القمر ليلف الإمبراطور والطائر الاصطناعي.

لم يكن الإمبراطور المسكين يستطيع التنفس وكأن شيئاً يجثم على صدره، وعندما فتح عينيه رأى أن الموت هو الذي يجثم فوق جسده وقد ارتدى تاجه الذهبي وأمسك سيفه في إحدى يديه، وفي يده الأخرى لواءه الأخاذ. ومن بين ثنايا الستائر المخملية الفخمة، ظهرت حول الإمبراطور وجوه غاية في الغرابة تنظر إليه، بعضها بشع و وبعضها الآخر سمحُ الطلعة، كانت تلك حسناته وسيئاته، فالموت كان جاثمًا على قلبه.

همس كل وجه للآخر "هل تذكر ذلك؟ وتكرر السؤال «هل تذكر ذلك؟» كلمته الوجوه كثيرًا حتى تصبب العرق من جبينه.

قال الإمبراطور: «لم أكن أعرف هذا قط. إليّ بالموسيقى، الموسيقى، الموسيقى، اقرعوا الطبول الصينية الضخمة حتى لا أسمع ما يقولون».

لكنهم استمروا، والموت يهز رأسه موافقاً، بالطريقة الصينية.

صرخ الإمبراطور: «الموسيقى، الموسيقى»، أيها الطائر الصغير المبارك غنِ، غنِ! فلقد منحتك الذهب والكنوز، بل وعلقت شبشبي الذهبي حول عنقك، هيا غنِ، غنِ!

لكن الطائر ظل ساكنًا، فلم يكن هناك من يشغله، ولم يغنِ. هذا والموت يحدق في الإمبراطور بعينيه الكبيرتين الفارغتين، كان الموت هادئاً هدوءاً مخيفاً.

في تلك اللحظة تماماً جاء صوت أحلى الأغاني من النافذة. كان العندليب الحقيقي الصغير جالساً على غصن الشجرة، وكان قد سمع بحاجة الإمبراطور للموسيقى فجاء ليغني له أغاني الطمأنينة والأمل. وحين بدأ العندليب يغني، أخذت الوجوه تشحب شيئاً فشيئاً من فوق الستائر، وأخذت الدماء تتدفق متسارعة في أطراف الإمبراطور الواهنة، وحتى الموت نفسه أخذ يقول «استمر في الغناء أيها العندليب! استمر!»

رد العندليب: «نعم سأفعل، إذا أعطيتني السيف الذهبي الرائع، وإذا أعطيتني اللواء الرائع، وإذا أعطيتني تاج الإمبراطور».

فأعطاه الإمبراطور كل تحفة مقابل أغنية، واستمر العندليب في الغناء. غنى عن مقابر دار العبادة حيث تنمو الورود البيضاء، ويعبق الهواء برائحة ثمر البلسان، وحيث يروى النجيل الجديد بدموع الثكلى. وعندها اشتاق الموت لبستانه، وانصرف من النافذة كسحابة بيضاء من الضباب البارد.

قال الإمبراطور: «أشكرك أشكرك، أيها الطائر السماوي الصغير. أنا أعرفك جيدًا، فلقد طردتك من ملكي، ومع ذلك جئت لتطرد بغنائك الرؤى الشريرة من فراشي، وأزحت الموت عن قلبي، فكيف أكافئك؟»

رد العندليب: «لقد كافأتني بالفعل عندما زرفت لي دموعك في أول مرة غنيت لك. لن أنسى ذلك أبداً، فهذه هي الجواهر التي تمس القلوب. لكن عليك الآن أن تنام لكي تتعافى، سأغني لك».

غنى الطائر، فاستغرق الإمبراطور في نوم هانئ هادئ معافى. وعندما استيقظ كان ضوء الشمس الآتي من النافذة يغمره حتى تعافى واسترد صحته. لم يكن أحد من خدمه قد عاد إذ ظنوا أنه قد مات، وكان العندليب لا يزال على غصنه يغني.

قال الإمبراطور: «لابد أن تبقى معي أبداً، ولن تغني إلا عندما تشاء، وسأكسر الطائر الاصطناعي ألف قطعة».

obeikandl.com

قـال الطائر: «لا تفـعل ذلك، فـقـد فـعل مـا في وسـعـه من خـيـر، فاستبقه، أما أنا فلا يمكن أن أبني عشاً وأعيش داخل القصر، فاسمح لي أن أتيك عندما أريد ذلك، ساعتها سآتي في المساء وأقف على الغصن بجوار النافذة، وأغني لك حتى تسر نفسك وينشط فكرك، سأغني عن السعداء وعن الذين يتألمون، سأغني عن الشر وعن الخير المحجوب عنك؛ فالطائر الشادي الصغير يطير بعيداً حتى مكان صياد السمك الفقير، ويقف على سطح بيت المزارع، ويصل إلى كل ما هو بعيد عنك وعن بلاطك، وأنا أحب قلبك أكثر من تاجك، بالرغم مما يحيط بالتاج من قداسة. سآتي وأغني لك، ولكن ينبغي أن تعدني بشيء واحد».

قال الإمبراطور: «كما تشاء». ووقف في عباءته الإمبراطورية التي ارتداها بنفسه ورفع سيفه الذهبي بمحاذاة قلبه.

قـال الطائر: «لا أسألك إلا شيئاً واحداً؛ لا تخبر أحداً عن الطائر الصغير الذي يعلمك بكل شيء، ساعتها سيكون كل شيء على ما يرام».

وطار العندليب بعيدًا.

وعندما جاء الخدم أخيرًا ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الميت، وقفوا مشدوهين؛ وهم يسمعونه يلقي عليهم تحية الصباح.

Obeikandl.com

تطبيقات الحكاية

تمثل أغنية العندليب قوة الحياة الأصيلة داخل كل منا، جوهرنا، لب كينونتنا، موهبتنا الموروثة، وعشقنا، ونوع الطاقة الذي يميزنا. إنها قوتنا الأصيلة، ولا يمكن لتلك الطاقة أن تصل إلى ذروتها بمنبهات زائفة مثل القهوة أو المسكرات أو الشهرة أو كسب الناس أو كلمات التشجيع أو الامتيازات، كما لا يمكن إهدارها في أنشطة تافهة. وهي تنتعش بالتحديات المجدية والمشاركة والإسهام الصادق.

من الأمثلة العظيمة للقوة الأصيلة صوت بيلي هوليداي غير المصقول؛ فقد كانت موهبتها من القوة بحيث لم تعد لقدراتها الصوتية المحدودة أهمية. في أول الأمر، كان المنتجون يعطونها أغاني من الدرجة الثانية، لكنها نفثت الحياة في كلماتها وألحانها، فما لبثوا أن قدموا إليها الكلمات والألحان العظيمة. وقد نسمع اليوم صوتها ونحن نتسوق في متجر على عجل أو نتناول غداءً سريعًا في أحد المقاهي، لكننا نتأثر بأغنيتها كما تأثر الصياد المشغول بالعندليب. وبالرغم من أن حياة بيلي هوليداي كانت مأساوية في نواحٍ كثيرة، إلا أنها كانت حياتها هي، لا حياة أحد، و طريقتها في الوجود في هذا العالم، لا طريقة أحد غيرها.

ليس كل فنان مشهور أو رياضي أو عالم أو صاحب حرفة أو رجل أعمال أو سيدة أعمال يبذل من نفسه مثلما بذلت بيلي هوليداي، بل

openkandi.com

إن كثيراً منهم يستخدمون معرفتهم وموهبتهم بطريقة محسوبة؛ وهذا يذكر بالعندليب الآلي: جميل وبراق ومرضٍ على السطح، لكنهم لا ينشئون ارتباطًا عميقاً مع البشر أو الأشياء.

مثل هؤلاء الفنانين، قد نبخل بموهبتنا أو نبسط بها أيدينا. فأغلب الناس مضطرون لمواصلة الأداء وتقليص التكلفة وزيادة الإنتاجية. أما نتيجة الحمل الزائد أو السخط، فتكون أداءً فاترًا؛ إذ ننسى أننا مسؤولون أمام أنفسنا عن إمكاناتنا.

ولحسن الحظ أمامنا اختيار آخر. في هذا الفصل سنستلهم العندليب الصغير لننمي إمكاناتنا ونعشق ما نفعل بكل قلوبنا، وربما اعتبر بعضهم هذه رؤية مثالية للحياة؛ فليكن، فالعالم يحتاج إلى المثاليين. الأهم أن ذلك لا يعني مجافاة الواقع، فليس العندليب بالساذج أو الغافل عن الطبيعة البشرية.

وسنتناول بالمناقشة أيضاً القوى التي تسعى لكبت حركة الحياة وحيويتها، ومنها نفوذ المناصب، ويرمز إليه الإمبراطور، ونفوذ الخبراء، ويرمز إليه أستاذ الموسيقى، فهذه نزعات تتجاذبنا وتتعكس على أماكن عملنا. وفي النهاية سنجتهد في موازنة نفوذ المناصب والخبراء بالقوة الأصيلة، ولا يمكن إنجاز ذلك إلا بإعادة التواصل مع جوهرنا والالتزام بطريقتنا الفريدة في الحياة.

obeikandi.com

العندليب نموذجًا

«عندليب يشدو بأعذب الألحان، حتى إن أفقر الصيادين، وأكثرهم انشغالاً، كان يتوقف ويستمع إليه»

كيف تتواصل مع طاقتك الأصيلة وتستعيد نصيبك من ذاتك؟ تدلنا قصة العندليب على ذلك. غنِ كلما عنَّ لك ذلك ولا تترك نفسك للكدر والغضب، بل احرص على التواصل مع معين قوتك، وغنِ من كل قلبك.

غنِ كلما شئت

يعشق العندليب الغناء، فهو يغني كل يوم ويجدد طاقة الصياد والإمبراطور جميعاً، ويصل غناؤه مع الزمن إلى درجة التمكن ، عندما تتحرك مشاعر الإمبراطور فتنزل دموعه، يغني العندليب غناءً أشد عذوبة. وعندما يجثم الموت على صدر الإمبراطور تبلغ قوة شدو الطائر الصغير وتأثيره مبلغاً يجعله يتفاوض مع الموت. فهل يستنفر عملك طاقاتك؟ وهل تستمتع بطريقتك في العمل؟ وهل من تعمل معهم يخرجون منك خير ما فيك؟

قضى سام كوهين، أحد الناجين من معسكرات اعتقال النازي، 46 سنة خلف طاولة بيع المأكولات الجاهزة بمحل زابار، وهو محلي المفضل في نيويورك. كان يعمل ستين ساعة في الأسبوع حتى تمكن من إلحاق ابنته بكلية طب الأسنان، وابنه بكلية الطب البشري. كان سام كوهين يسعد الناس بأغنيته. لم يكن الرجل بارعًا في تقطيع

obeikandi.com

شرائح السالمون فحسب بل كان يغازل النساء اللاتي كن يلقين التحية على الرجال من باب الصداقة ليس إلا، فقد كان يسعى لخلق حياة مرحة لكل من يوجد حول مكان عمله.

لا تترك نفسك للكدر والغضب

أغلب شخصيات الحكاية لا ينتبهون لموهبة العندليب، ويسايرون الشائع بين الناس أو ما يقوله الخبراء، فهم لا يميزون بين لحن شجي ونقيق ضفدع، أو بين موهبة حقيقية وأداء سابق التجهيز. لكن العندليب لا ينوح ولا يشكو من سوء فهم الناس، بل يستمر في الشدو. فهل تشعر أنك مغبون في القدر أو الأجر أو مقيد في سوق عمالة سريع التأثر؟ وإن كان الأمر كذلك فهل تمضي وقتك ترثي لحالك أم تنمي قدراتك المهنية؟

كانت حياة الملحن الإسباني المعاصر جوكين رودريغو شاقة في بدايتها؛ إذ فقد بصره طفلاً وكان ضمن لاجئي الحرب الأهلية الإسبانية التي وقعت في القرن العشرين، ومع ذلك ظل مخلصاً لموسيقاه. أراد رودريغو أن يبدع موسيقى إسبانية تمتع الناس ولكن ليست موسيقى وطنية حماسية، أرادها موسيقى حديثة، ولكن ليست الموسيقى الطلائعية التي يمتدحها النقاد. وهكذا، وجد الناس ألحانه الكلاسيكية شديدة الجدية وتجاهلها النقاد بوصفها موسيقى خفيفة. لكن رودريغو لم يتكدر ولم يغضب؛ بل قال: «ربما كان كأسي صغيراً

لكني لا أشرب إلا منه». كان رجلاً متواضعًا أبدع روائع مثل «كونشرتو الأراغوز» للغيتار وقد لقي تقديرًا وجوائز عالمية وتكريمًا لم ينله ملحن إسباني غيره.

تواصل مع مصدر قوتك

العندليب لطيف لكنه قوي، فبينما يهرول الجميع لتلبية أي طلب بسيط للإمبراطور، يرفض هذا الطائر الصغير شبشب الإمبراطور الذهبي ويترك القصر ويرفض أن يعود إليه. وهو لا يفعل ذلك لأنه أناني أو ضنين بما لديه، وإنما لأن الغابة هي مصدر حياته وحريته التي دونها لا يمكن أن يسعد الآخرين. ولا يبقى الطائر قوياً إلا وهو متصل بمصدر قوته. فما الذي يشتتك ويستنزفك؟ وما الذي يمنحك التركيز ويغذيك؟ ما الأشياء التي ينبغي أن تقول لها «لا»؟

المنافسة هي مصدر طاقة كثير من رجال الأعمال والرياضيين. ففي ثمانينيات القرن العشرين كان فريقا «ليكرز» و «كيلتيكس» أسياد لعبة كرة السلة التقليديين تحت قيادة ماجيك جونسون و لاري بيرد، كل يقود فريقه في لحظات الحسم. كان التنافس هو الذي يشعلهما ويجعلهما يلعبان بكل كيانيهما، كانا يغمزان بالكلام في بعضهما في المقابلات الإعلامية قبل المباريات، ومع ذلك كان كل منهما يحترم الآخر إلى حد بعيد، وكان ماجيك يعلم أن الخصم العظيم مصدر للطاقة وكثيرًا ما قال إن بيرد يجعله لاعبًا أفضل.

obeikandl.com

غنٍّ من كل قلبك

لا يستجيب العندليب لسياسة الجزرة والعصا المعروفة في القصر، في صــورة منح الذهب أو الألقــاب أو الجَلد على البطن، إنه يريد الحرية والحميمية (دموع الإمبراطور) والجدوى، ولأنه يدرك مصدر قوته، فإن أداءه دائمًا عظيم. فما الذي يدفعك لأن تغني من كل قلبك؟

كانت كارولين كيرتس واحدة ممن ألهمني غناؤهم؛ فقد قمت بإدارة منتجع للقادة التنفيذيين لسنوات في سندانس، وهو منتجع روبرت ردفورد الجبلي في يوتا، وكانت كارولين منسقة البرنامج. وكانت أقصى توقعاتنا أن يحصل القادة المشتركون في البرنامج على 9 أو 10 في تقويماتنا، لكن المشتركين كانوا يوسِّعون تقديراتنا في كل مرة فيصلون بتأثير كارولين إلى 11 أو 12. كانت كارولين تتواصل معهم، وتتوقع حاجاتهم، وتهيئ لهم بيتاً بعيدًا عن بيتهم الحقيقي. لم تكن تفعل ذلك من أجل المال أو الترقي ولا حتى تقدير الزملاء. الحقيقة أن العملاء أحبوها، ولم يكن أغلب من في المؤسسة يسمع عن عذوبة شدوها؛ كانت تفعل ذلك لأنها تعشق عملها، وتحب الناس الذين يحضرون البرامج التدريبية.

مثل العندليب، يمكننا أن نسعد الآخرين بعملنا، وذلك إذا فهمنا الفرق بين أن نعطيهم جزءاً من وقتنا وأن نعطيهم جزءًا من روحنا، بين العمل بجد واجتهاد والعمل بإخلاص وحب.

لكن التميز يقتضي المرونة، لابد أن نتحلى بقوة تجعلنا نواجه الأباطرة ذوي النفوذ وأساتذة الموسيقى على كراسيهم العالية الذين يعدون العنادل عناصر تثير الارتباك.

الإمبراطور وأستاذ الموسيقى

«ثم كان على الطائر الاصطناعي أن يغني مجدداً، وللمرة الثالثة والثلاثين، كان اللحن نفسه»

يعتقد كثير من الأباطرة وأساتذة الموسيقى أن العنادل صعبة المراس؛ لأن جوهرها، طريقتها الأساسية في الوجود، لا تستجيب على نحو يمكن التنبؤ به للمال أو الامتيازات أو الشهرة. قد يعجبهم أداء متميز، لكنهم يفضلون عليه ما يأتي بنتائج مضمونة ويمكن تكرارها.

إن الأداء المنضبط المحسوب دوريًا هو أساس الشركات ذات الأسهم المطروحة للعامة، فإذا كان لأباطرة أندرسون سلطة مطلقة، ففي أيامنا هذه لا يقبل المحللون والمساهمون ومجالس الإدارات أي مفاجآت، وعلى المديرين التنفيذيين الكبار أن يقدموا تنبؤات دقيقة وإلا فقدوا مصداقيتهم، وعلى المديرين المباشرين أن يحققوا أهدافاً مالية وإلا فقدوا علاواتهم، وعلى العاملين الأفراد أن يحققوا الأهداف الإنتاجية المنشودة وإلا فقدوا وظائفهم. وكما يجري القول، ليست مسألة شخصية، بل هو حكم العمل. وحتى نتجنب هذه العواقب، نقبل أن نطلق أيدي أناسٍ يتصرفون كالإمبراطور وأستاذ الموسيقى، ثم نُسكت عنادلنا فنخدرهم بمشروبات أو أقراص مذهبة للعقل، أو نغرقهم في إدمان العمل أو مشاهدة التلفاز بصفة مستمرة؛ وعلى السطح لا يبدو أننا نخسر كثيراً بهذا.

وإذا كنا نتعرف بسهولة على الأباطرة وأساتذة الموسيقى حولنا، فإن أخطرهم يعيش بداخلنا ولابد أن نحذرهم.

الإمـبـراطور داخل كل منا هو نفـوسنا الطمـوحـة المدفـوعـة، ذلك الجزء فينا الذي يحرص على مكانتنا ومكانة الآخرين في هرم السلطة الذي يفهمه. هـذه الصفة تستطيع أن تقرأ سياسة الإدارة وتعرف كيف تؤثر في الناس. وهذا الإمـبـراطور الموجود بداخلنا يمكن أن يخلق لنا المشكلات إذا أطلق له العنان، ولكنه يستطيع أن ينجز لنا أشياء كثيرة. يمكن أن يساعدنا في خلق ملف عملي مرغوب في سوق العمل، وفي وضع استراتيجية للوصول إلى المنصب الذي نريده، وفي توفير قدر من المرونة في أثناء ذلك.

وبداخلنا أيضًا أستاذ موسيقى، وهو عقلنا التحليلي، حاجتنا لأن نرى البـيـانات والأدلـة المادية قبل أن نتحرك. هـذا الأسـتـاذ الداخلي يثق بما يمكن رؤيته وإحصاؤه وتتبـعـه؛ فهـو منظم ومنضبط وكفء. وطالما أن تلك الشخصية لم تجر على غيرها بأن تتجاهل مشاعرنا وحدسنا على نحو متكرر، فإنها ستساعدنا كثيرًا على إنجاز ما في أيدينا من عمل.

هذه هي قـوى التـحكم والتنبـؤ التي تكمن بداخلنا، والتي تلقي بظلالها على أماكن عملنا؛ فالأباطرة يحكمون الأبنية الهرمية بينما يراقب أساتذة الموسيقى الإنتاجية.

وسنلقي الآن نظرة على هذه الشخصيات واحدة بعد الأخرى حتى نرى كيف لها أن تعين أو تعيق الارتباط الصادق. إن طريقة تصرف هذه الشخصيات داخل مكان عملك هي التي تجعل موقفك سليماً أو مضراً أو واعداً.

Obeikandl.com

ما يفعله الأباطرة

«إذا لم يأت العندليب سيجلد كل من في القصر على بطنه بعد العشاء مباشرة»

تخلق التنظيمات الهرمية أباطرة على كل المستويات. وبالرغم من سمعتها السيئة فهذه التنظيمات تتسم بمرونة فائقة في تنظيم المواقع واكتساب المكانة. ومع بغضنا لطبيعتها غير الديمقراطية، فإننا نحب أن نستخدم المناصب والنفوذ بغرض السيطرة.

يستخدم الإمبراطور في حكايتنا أساليب ناعمة وأخرى فظة ليفرض سيطرته؛ فالقصر والبساتين ترمز لجاه الإمبراطور، تماماً كما توصل ممرات مكاتب الموظفين التنفيذيين إحساساً بهيبة النفوذ. ففي هذه الأماكن يدرك الأطفال على الفور أن حماسهم سيكبح كما سيمنع ضحكهم ولعبهم وقفزهم، ويدرك الكبار ذلك أيضاً، ولكن مظاهر الثروة و القرب من النفوذ يغريهم.

يريد الإمبراطور أن يضيف العندليب لمقتنياته، وقد توقع أن هذه الصفقة يحليها شبشب ذهبي أو مجوهرات أو ألقاب، ولكن العندليب لا يستجيب لتوقعات الإمبراطور، فيطلب الحميمية (ذلك التواصل الصادق الذي عبرت عنه دموع الإمبراطور) ويطلب الحرية. وهذه مطالب تبدو بسيطة ولكنها أكثر مما يستطيع الإمبراطور أن يقدمه، لأنه لا يقدر أن يتخلى عن السيطرة.

obeikandl.com

وهكذا ينتقل الإمبراطور إلى ممارسة السيطرة الغليظة فيستخدم القهر؛ لكنه يريد أن يكسب هذا القهر مظاهر المشاركة الطوعية «فيسمح» للعندليب بقفص خاص بالإضافة إلى «حرية» التنزه خارج القصر، و«يمنحه» اثني عشر خادمًا يرافقونه. يقصد الإمبراطور بهذا التكتيك أن يستولي على طاقة الحياة لدى الطائر. ولكن – كما تقول مارغريت ويتلي – وهي خبيرة في الأجهزة الطبيعية «لا يمكن لأحد أن يمارس الهيمنة على الحياة» فلا عجب أن يهرب العندليب من النافذة، ويسترد حريته في أول فرصة ينشغل الإمبراطور فيها عنه.

يتركه أهل بلاطه في مرحلة تالية من الحكاية لعكس هذا السبب تمامًا؛ فقد وهنت قبضة الإمبراطور على السلطة، وتم اختيار حاكم جديد. ولأن قيمة أهل البلاط الذاتية ترتبط بمناصبهم، والحاكم القديم صار عبئًا، فقد هرعوا إلى كسب المكانة عند الحاكم الجديد.

وفي النهاية يصبح الإمبراطور وحيداً تماماً. يواجه الموت ويعذبه الندم، يصرخ طلباً للعون فيستجيب العندليب الصغير وتأتي الراحة مع غنائه. وبعد ليلة من النوم الهانئ المجدد للطاقة، يستيقظ الإمبراطور على شعور جديد بالمسؤولية، فيقدم وعد اليوم الوليد، وعداً لا يخدم به الإمبراطور ذاته بل بلاده. ولكن هذا التحول يمثل مشكلة لدى المرتبط بسلطة المناصب. يأتي الخدم ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الميت، فتكون «صباح الخير» التي يلقيها عليهم مزعجة لهم لا واعدة.

obeikandl.com

والآن أدعوك للتفكير في اللاعبين الرئيسين في مكان عملك. هل يحرصون على رضا صاحب المكانة الأولى أكثر من حرصهم على مصلحة المؤسسة؟ هل يحركهم الخوف من الضرب على البطن أم الحرص على الشبشب الذهبي؟ هل يعتمدون على سياسة العصا والجزرة في دفع من حولهم للعمل؟ هل يسعون للسيطرة على طاقات الناس أو استغلالها ويغلفون نواياهم برطانة إدارية؟ فإن كان الأمر كذلك، فلا تكن من السذاجة بحيث تتوقع منهم التغيير، بل كن يقظاً وفكر في خياراتك. هل أفضلها أن تعلن عن رأيك بصراحة أو تنتقل إلى مكان آخر أو ترحل؟ لست مضطراً إلى اتخاذ إجراء فوري، أو ربما أي إجراء، ولكن كل ما عليك ألا تسمح لأحد أن يخدعك.

المأمول أن يقدر رئيسك واللاعبون الرئيسون موهبتك وأن يستخدموا سلطتهم لصالح المؤسسة، فإذا حدث ذلك فلا تبخل، بل كن كريماً بجهدك ووقتك وابذل أقصى ما تستطيع، وقدم أقصى أداء لك.

ما يفعله أساتذة الموسيقى

«لكن الطائر الاصطناعي ظل ساكناً، فلم يكن هناك من يشغله، ولم يغنِ»

يقدم أندرسون وصفاً نافذاً للعقل التحليلي عندما يخاطب أستاذ الموسيقى البلاط: «فكما ترون - أيها السادة والسيدات - وقبلكم

عظمة الإمبراطور، مع العندليب الحقيقي لا يعرف المرء ماذا سيحدث، أما مع الطائر الاصطناعي فكل شيء محدد، ونعرف ما سيكون ولا اختلاف، إذ يمكن تفسير كل شيء، ويمكن أن نفتحه ونرى عمل العقل البشري، وكيف وضعت الأسطوانات الموسيقية وكيف تدور وكيف تتحرك ونرى أن كل شيء يلي الآخر».

هذا النمط من التفكير هو الذي شكل مؤسساتنا الصناعية الحديثة، حيث تبنى القرارات على البيانات وعلى أصحاب الكفاءات المقربين وعلى الإنتاجية والتقدم. لو كان أندرسون يكتب اليوم لجعل أستاذ الموسيقى مستشارًا باهظ الأجر، خبير إنتاجية مبهرًا يلحق باسمه وصف الحائز على أعلى المبيعات التجارية، وشخصًا يرجع إليه أباطرة المؤسسات.

كان فريدريك و. تايلور أهم أستاذ موسيقى في القرن العشرين، فقد أحدثت «الإدارة العلمية» فتحاً في مجال الكفاءة داخل المصانع. بعد ذلك جاء ألفريد سلون المدير التنفيذي الأعلى لشركة جنرال موتورز، ووضع التفكير التحليلي في المكتب الأمامي، فقد كان يرى أن صناع القرارات هم «المادة الخام» للإدارة، وان القرارات الجيدة هي «المبنية على الحقائق تماماً والخالصة من كل اهتمام شخصي». والحقيقة أن أسوء ما يمكن أن يفعله أي مدير حسب كلام سلون هو أن يسمح للاعتبارات الشخصية أن تتدخل في قراراته الخاصة

بالعمل. ومازالت الكفاءة هي أهم ما في عالم الأعمال بعد قرن من كلام تايلور. فإن أغلبنا قد تعرض لخبرات الدمج أو إعادة التنظيم أو إعادة الهيكلة؛ كل ذلك من أجل تحقيق إنتاجية أكبر باستمرار. وبالطبع فإن هذه القفزات في الإنتاجية هي التي تتيح لنا الاستمتاع بمستوى معيشة شديد الارتفاع.

إن ذهنية أستاذ الموسيقى تساعد أيضاً على خلق أماكن عمل تقوم على المزايا الشخصية. ففي محاولة تحقيق الموضوعية وربط الأجر بالأداء، لابد أن نحدد الأدوار، ونعرف الكفاءات، ونضع المقاييس ونتابع التقدم.

لكننا قد نعامل البشر كالأشياء عندما نحاول أن نحقق العدل والإنصاف. فنحن نصف العمليات مسبقاً ونرسل زبائن من طرفنا غير معروفين ليقيموا النتائج: هل يحرص الموظفون على أن ينظروا للعملاء باهتمام، وأن يقولوا «مرحباً» بابتسامة ويحيونه باسمه؟ مثل هذه الإجراءات قد تضمن حدًا أدنى من الأداء المُرضي، ولكن الجو الذي خلقه سام كوهين حوله في محل زابار لا يمكن أن يخضع لهذه المقاييس، وللأسف لا تدخل هذه الصفات الفريدة في الحسبان، لذلك فهي تسقط من التقويم.

ولكن أساتذة الموسيقى قد يسببون الإحباط لمرؤوسيهم أصحاب الأداء المذهل المدهش. أما من يحبون القواعد الواضحة ولديهم كفاءة

obeikandl.com

تنفيذية ترتبط بالتعليمات فيعدونهم خير مديرين. إن الأمل في تغيير هؤلاء ليس إلا أماني، وخير لنا عمليًا أن نتحمل مسؤولية علاقتنا بهم. ولحسن الحظ أنني رأيت في أثناء تدريبي للقادة كثيراً من العلاقات المضطربة تتحسن وتصبح مثمرة عندما ينجح أحد الطرفين في السيطرة على انفعالاته ويصرف اهتمامه إلى احتياجات الطرف الآخر (وهي احتياجات مشروعة في غالب الأمر).

رأينا أن شخصيات الأباطرة وأساتذة الموسيقى قد تكون شخصيات جامدة، لكن التعامل الناجح معهم يقتضي أن نراهم كما هم. وعندها نختار المواجهة معهم أو الانفصال عنهم.

الأهم من ذلك أننا نحتاج أن نواجه إمبراطورنا الداخلي، وأستاذ الموسيقى القابع بداخلنا، وأحياناً العندليب الطيع فينا أيضاً. وسيبين الجزء التالي كيف نبقى على وعي بوجود هذه الشخصيات وكيف نمنعهم من السيطرة على حياتنا.

عندما تعمل القوة الأصيلة

لكنهم كانوا إذا ما سمعوا العندليب يقولون جميعاً الشيء نفسه: «هذا هو الأروع على الإطلاق».

بالمقارنة مع آبائنا وأجدادنا، فإننا نستمتع بمدى أوسع من الفرص ونملك خيارات متعددة في الحياة. فلا يكمن التحدي في التمييز بين المهم وغير المهم؛ بل في تقرير أولوية الأهمية. بعد ذلك فإن حركتنا السريعة جعلتنا لا نضيق ذرعًا بتلك الأجزاء الموجودة في أنفسنا والتي تحتاج تأملاً وتفكيرًا مترويًا.

وحتى نصل إلى أعمق مصادر طاقتنا ينبغي أن نتروى ونفكر بعمق. وسأكتفي بمناقشة ثلاثة أشياء تستحق التفكير: وهي ضرورة التمييز بين دفقة أدرينالين مؤقتة والطاقة الأصيلة، بين المكانة القائمة على المنصب والسلطة الحقيقية، بين التفكير الأقرب للتمني والعشق الصادق والالتزام*.

تستولي الحاجات الطارئة على كثيرين منا، وكثيرون أدمنوا تلك الحاجات الطارئة، بل إن منا من يخلط بينها وبين الأشياء المهمة حقاً. فإذا كان نمط عملك قوامه 46 ساعة أسبوعياً وتلهبك سياط المواعيد النهائية وتعمل بأقصى سرعة ونفاد صبر، فإنك في خطر. عليك الآن أن تضغط زر التوقف المؤقت وتمنح نفسك وقتاً للاسترخاء والتأمل. اسأل نفسك: «هل أقوم من فراشي صباحًا وأندفع للعمل بسبب المواعيد الصارمة والأدرينالين والكافيين، أم أن العمل نفسه هو ما يخرجني من فراشي؟»

أذكر في أحد برامج المنتجعات أن أحد التنفيذيين كان يفكر في مدى التوازن بين حياته وعمله، وكان قد طلب منه أن يدون ما يحب أن يقوله الناس عنه في جنازته. ولقد اتصل الرجل بزوجته فعلاً وفاجأها بالسؤال: «تحياتي يا عزيزتي! لو مت ماذا ستقولين عني؟» أخذت المرأة بالسؤال وكان ردها الفوري: «إنك تعمل بجد». وبالرغم من اعترافه بأنه يعمل سبعين ساعة في الأسبوع، صدمه أن تكون هذه

* يمكنك أن تحصل على نسخة مجانية من كتاب Guidelines for Candid Team Conversationsعلى موقعنا www.mettenorgaard.com

أول كلمات تخرج من فم زوجته عنه؛ لذلك قاطعها قائلاً: «أهذا ما ستقولينه عني؟!» وبالطبع انتبهت الزوجة للموقف، وأعطته الإجابات سابقة التجهيز التي مفادها أنه أب رائع وزوج محب، لكن ذلك، لحسن الحظ، لم يذهب قلقه.

كثيرًا ما تغرينا الوظائف عالية الأجر والمكانة. ولنقل إنك تلقيت عرضاً للاشتراك في مشروع ذي سمعة ومكانة كبيرة، الأجر فيه عظيم والترقي مفتوح، أي ضربة موفقة إلى الأعلى. ولكن المشروع سيستغرق شهورًا وسيقتضي الانتقال إلى مكان آخر. يتفق إمبراطورك الداخلي مع رفيقه أستاذ الموسيقى على أن هذه خطوة عملية، فتسرع إلى البيت لتقنع عائلتك. في أوقات كهذه يحتاج المرء لأن يتوقف ويأخذ الوقت الكافي للتفكير فيما إذا كانت هذه النقلة ستمنحه قوة حقيقية. استمع إلى صوت العندليب: «هل العمل نفسه يجذبني؟ هل المشروع من الجاذبية بحيث سأظل متعلقاً به لشهور؟ هل أحترم من سأعمل معهم من الناس؟ هل ثمرة هذا القرار تكافئ الثمن الذي سيدفعه من أحبهم؟».

لابد من التمييز بين التفكير من باب التمني والعشق الحقيقي. يعتقد الكثيرون أن السعادة هي أن نترك العمل، ونتفرغ لكتابة الرواية الأمريكية العظيمة المنتظرة، أو نفتح مطعمنا الخاص أو نلتحق بهيئات تطوعية تساعد الشعوب الفقيرة. قد تكون تلك الأشياء مهنة بعض الناس، لكنها مجرد خيال للغالبية، حالة من حالات البحث عن السعادة في العمل والحياة عن طريق سيناريو خيالي لا عن طريق السعي المخلص والالتزام.

obeikandi.com

يقدم ديفيد فيسكوت - عالم النفس الجاد وصاحب البرنامج الإذاعي - النصيحة التالية: عندما يشتكي أحد المتصلين من التعاسة ويعلن الرغبة في الاستقالة من العمل والتفرغ للكتابة، يسأله فيسكوت: «ما قدر ما تكتب حالياً؟» فإذا قال متذمراً: «ليس لدي وقت للكتابة حالياً»، يقول له: «ابدأ الكتابة الآن»، ويقترح عليه مداومة الكتابة يومياً وفي نهاية الأسبوع وفي أثناء الإجازات، أن يكتب ويكتب ويكتب. فإذا شعر أنه ما زال بحاجة إلى المزيد من الوقت ليكتب، يمكنه حينئذٍ أن يعمل لنصف الوقت. فإذا استغرقت الكتابة كل ما توفر له من وقت يمكنه ساعتها أن يفكر في ترك عمله. إن مراجعة الإنسان لسلوكه وسيلة ممتازة لاختبار مدى التزامه.

ولسوء الحظ، عندما يكون الأمر متعلقاً بالأحلام تخرج علينا شخصية ديزني «جيميني كريكيت» لتضللنا بكلام مثل «عندما نتمنى الوصول لنجم نصل إليه» فيجعلنا نظن أن التمني وحده يحقق الأحلام. أما الدكتور فريمان هرابوسكي - رئيس جامعة ميريلاند - فقد تجاوز الحلم إلى ما يحقق الحلم. ففي سن الثالثة عشرة زار معهد توسكيجي وهناك أدرك أن العلم سيكون حياته. وبدأ يتصور نفسه حاملاً لدرجة الدكتوراه، ويدرس الرياضيات و يصل إلى منصب العميد. وفرض هذا المراهق على نفسه نظاماً يومياً حتى يحقق هذه الرؤية. ففي كل صباح كان ينظر في المرآة ويقول: «صباح الخير يا دكتور هرابوسكي». كانت رؤيته واضحة، وكان عنده الالتزام الذي يحفظها.

obeikandl.com

تقول تويلا شارب مصممة الاستعراضات المعروفة، في كتابها «عادة الإبداع» إن تحقيق الأحلام يقتضي التزامًا مجنوناً. حتى بعد أن وصلت تويلا سن الستين، مازالت تبدأ يومها في الخامسة والنصف صباحًا بساعتين من التدريب في صالة الألعاب الرياضية قبل البروفات. هذه الحاجة للالتزام هي لب إحدى النكات القديمة عن سائح يسأل شخصاً عن شوارع نيويورك: «كيف تذهب إلى كارينجي هول؟» فيجيبه: «بالتدريب ثم التدريب ثم التدريب». مهما كان ما تحلم به، فإن السؤال الحاسم هو هل لديك الانضباط الكافي لتحققه بيدك؟

* * *

الغناء هو موهبة العندليب وعشقه، فهو يغني حتى بعد حرمانه من أشياء مهمة مثل الحرية والمكان المفتوح.

ليست الموهبة والعشق موضوعاً للحكايات الخرافية وحدها، فكتاب مثل «من جيد إلى عظيم» وقد حقق أعلى المبيعات، يبين مؤلفه، جيم كولينز، الباحث في مجال الأعمال أن الموهبة والعشق من ضرورات تحقيق أداء متميز لأي مكان عمل، وهما أساسيان لأي شخص يود الانتقال من مستوى متواضع إلى مستوى تمكن العندليب. يدعونا جيم كولينز للتفكير في سؤالين مهمين: «ما الشيء الذي أحبه إلى درجة تجعلني أطمح إلى العظمة؟» و«ما الشيء الذي أحبه إلى درجة تخلق عندي الدافع والانضباط اللازمين لتحقيقه؟». هذان السؤالان بداية

مثالية لمن أراد أن يتجاوز أداؤه المستوى المتهافت، وأن يمنح عمله جزءاً خالصًا من نفسه.

أما عشقي أنا فهو أن أساعد الناس لأن يكونوا صادقين وأن يعيشوا بحق في عملهم، وأن يكون للناس حياة أصيلة تخص العمل. وأملي أن تكون قصة «العندليب»، وهي الأثيرة عندي قد مست مشاعرك بشدوها حتى تكون «سعيداً» و«متفكرًا».

obeikandi.com

نقاط تستحق التفكير

ـ ما الذي يبعثر طاقتك ويشتت انتباهك عن مصدر قوتك، وما الذي ينبغي أن تقول له «لا»؟

ـ ما حجم عوامل مثل المنصب والامتيازات والشعبية في تحديد اختيارات حياة عملك؟ وما حجم عاملي العشق والموهبة؟

نقاط تناقشها مع زملائك

ـ من «العنادل» التي تستمتع بها؟

ـ ما الأنشطة والتفاعلات التي تستنزفنا، و أيها يحيينا؟

obeikandl.com